المخطوطات الخاصة حكاية (عشق بج

أخفاها تحت التراب فمات ودفن م

تحقيق/ محمد عبدالله السيد

□ .. يعشقونها بجنون ويخافون عليها نسمة الهواء ويحجبون عنها ضوء الشمس ويحرصون على عدم التفريط بها مهما كان الثمن ، لدرجة أنهم يبنون لها سجونا صغيرة شديدة الظلمة والعتمة ، اطلقوا عليها (الخزانات) وحرموا الاقتراب منها أو تصفحها.

● هل عرفتم من تكون؟ إنها المخطوطات التي قتلها حبنا الأعمى فلا تعاونا مع الجهود التي سعت إلى توثيق وحصر مخطوطات المكتبات الخاصة ولا استفدنا من العروض المجانية

(ومن الحب ما قتل)؟!.

تكاد حكايات موت المخطوطات في الخزائن والمكتبات الخاصة لاتنتهي فكل حكاية اغرب من الأخرى والسبب (الحب الأعمى) الذي يخيم على بعض القلوب والعقول!!

● يقول سيف عبدالله المرتضى: توفي والدي منذ عشر سنوات ومما ترك لنا بعض الكتب الدينية القديمة ونحو مخطوطتين كنت نادرا ما أرى الوالد يطالعها ، وربما كان ذلك بسبب هيئتها المتدهورة والتي لاتحتمل تصفحا أو حتى حملا، في كل مرة كنت أنظر فيها إلى هاتين المخطوطتين أشعر بأننا نفتقدها ونتركها تموت وتتلاشى دون أن نحاول تقديم العلاج لها، وقبل نحو عامين ونصف وافق اثنان من اخواني على تسليمها لوزارة الثقافة بعد أن سمعنا أن هناك لجنة تقتني المخطوطات وتدفع ثمنها، إلا أن أخي الأكبر رفض ذلك، بل إنه منعنا من طلب المساعدة من المعنيين بترميم الأجزاء المتبقية منها ، بحجة الخوف من المصادرة!!

وفي يناير ٢٠٠٤م وضعنا المخطوطتين أمام أخي الذي فوجئ بحالها بسبب الرطوبة ونحوه ووعدنا بتدارك الوضع حيث سلم أمر المخطوطتين لأحد الاشخاص بالحارة ليقوم بتجليدها وتنظيفها ، وهنا ازداد الوضع سوء بعد أن فقدت العديد من أوراق وصفحات المخطوطتين!!

حكاية أخرى

● قصة أخرى كانت وزارة الثقافة والسياحة مسرحها ، حيث شاءت الأقدار أن استمعت لحوار قصير دار بين الاخ خالد الرويشان وزير الثقافة والسياحة وأحد الاشخاص ، حيث عرض الأخير على الأخ/ الوزير تسليم الوزارة مخطوطة وصفها بالقيمة مفضلا عدم احضارها في ذلك الوقت.

الوزير الرويشان بدا أكثر اهتماما بالموضوع مثنيا على الرجل وحاثا له على تسليم المخطوطة إلى لجنة إقتناء المخطوطات في الوزارة لتقييمها ودفع الثمن المناسب لها.

أحمد الذي يقطن صنعاء القديمة قال لنا وهو يغادر مبنى الوزارة مسرعا: (لقد افتقدنا ثلاث مخطوطات بسبب حشرة الأرضة والرطوبة التي دمرت الجزء الباقي ، ولست على استعداد لافقد المخطوطة الأخيرة بعد أن وافق الوالد على بيعها)..

طلبنا من أحمد السماح لنا بتصوير تلك المخطوطات المندثرة التي أشار إليها ، لكنه اعتذر لنا لعدم وجودها، أعطيت رقم هاتفي لأحمد للاتصال بي إذا وجد أي مخطوط يستحق التصوير وبعد ثلاثة أيام وصلني اتصال يقول (نلتقي غدا عند مدخل الجامع الكبير حيث سنصطحبك أنا وأحد الأصدقاء لتصوير تلك المخطوطات التي طلبتها) وفعلا تحدد الوقت والمكان ، ودخلنا أحد المنازل المجاورة برفقة أحد أصحابها، صعدنا الطابق الثاني ودخلنا إحدى الغرف ومنها إلى غرفة أخرى يوشك الضوء أن ينعدم منها، وبينما كان الشاب يحاول فتح خزانة الكتب حصل ما لم نكن نتوقعه فقد ظهر علينا شيخ كبير صرخ في وجوهنا قبل أن يعرف هدفنا، انسحبت مسرعا بالخروج ليلحق بي الشابان بعد خمس دقائق وبينما كنت اتصبب عرقا من الإحراج فإذا بالشاب يقول لي مبتسما: (لاتخف .. أعرف أناسا هنا يغلقون على مخطوطاتهم بأكثر من قفل بسبب إختلافهم حولها، والطريف أن هناك من أغلق على مخطوطاته في الخزائن لسنوات وعندما فتحها وجد جزءاً منها قد تحول إلى (غربال) بفعل التهام حشرة الأرضة لها!!)

من الطيور إلى الفئران

● الحكايات الطريفة التي تروي ما حصل لإحدى المكتبات في مدينة زبيد كان مالكها أحرص الناس عليها ، حيث فكر في طريقة لانقاذها من حشرة الأرضة، فوضعها في صناديق محكمة واختار لها مكانا في أعلى المنزل ، ثم فوجئ بعد فترة أن صناديقه تلك تم العبث بها، والفاعل (الطائر النقار) الذي جنى على أخشاب الصناديق ووصل إلى أغلفة وأوراق بعض مخطوطاتها.

● الفئران هي الأخرى وجدت في أوراق المخطوطات وصفحاتها مسرحا لها ، فبعض المكتبات نتيجة لظروف وأحداث تم تخزين محتوياتها في صناديق خشبية أو أكياس (شوالات) القمح أو بدون في أماكن مظلمة أسفل الدور وتعرف بـ(السوافل) فهاجمتها الفئران وأتت على بعضها وقضمت أطراف وأغلفة البعض الآخر، وأغلب ما كان يستهويها في المخطوطات جلدها وخيوط حياكتها ، وهذا ما حدث لعدد من المكتبات في جبلة وزبيد وغيرها!

يقول الباحث عبدالوهاب المؤيد عن مكتبات زبيد التي زارها:

(إن الأرضة هي الخطر الأول على المخطوطات هناك ووجودها في زبيد أصبح شبه ملازم لها ، حيث تظهر آثار الأرضة وحشرتهاعلى المجلدات فلا يكاد يسلم مجلد من تلف الأرضة على الأغلفة والأوراق بنسب تصل في الحد الأعلى إلى ٢٠٪ من المخطوطة الواحدة وفي الأدنى ٥٪ مع اختلاف في نسب وعدد العوامل المساعدة على انتشار واستفحال خطر الأرضة والتفسخ والتمزق والتصاق الصفحات ببعضها).

ويضيف المؤيد لقد اتلف البلل الكثير من نوادر المخطوطات وأساح احبارها وطمس معالم خطوطها وتسبب بعض الصفحات من أول المخطوط وآخره لأسباب كثيرة منها إخفاء التمليكات الذي عليه إن كان مسروقا، وطمس بعض التمليكات أو خدشها وطمس اسم الناسخ لأسباب مجهولة وهذا منتشر في كثير من المخطوطات.

اختلفت الأرقام

● ظلت المخطوطة العربية الاسلامية إلى يومنا هذا رمزا هاما من رموز الحضارة العربية والاسلامية ، حيث اضحت وثائق مادية لجوانب هامة من حضارة الأمة وصورة معبرة عن الذات والهوية.

كما إنها ليست تراثا عربيا اسلاميا فحسب ، بل وقيمة حضارية انسانية تضيء مسيرة التاريخ للأجيال القادمة.

واليمن بدورها تعتبر إحدى الدول العربية والاسلامية التي تمتلك كنزا ثمينا وثروة ضخمة من المخطوطات التي تتميز بتنوع مواضيعها في مختلف الفنون والعلوم.

ففي الوقت الذي يقدر فيه الباحثون أمثال المستشرق الالماني (أريوإن) عدد المخطوطات اليمنية بنحو مليون مخطوطة متناثرة في المكتبات والمراكز والمساجد أو في حوزة بعض الأفراد داخل اليمن وخارجها أو مسجونة في مكتبات عربية وعالمية، تشير مصادر بدار المخطوطات اليمنية إلى تضارب المعلومات حول التقديرات الحقيقية والواقعية لحجم المخطوطات في اليمن، روايات تقول إن العدد يصل إلى ٢٨٠ ألفا في حين يؤكد بعض المؤرخين أن العد يتجاوز هذا الرقم بنسبة كبيرة، خاصة مع الاكتشاف الأخير للمخطوطات القرآنية التي عثر عليها في سطح الجامع الكبير بصنعاء قبل أكثر من ثلاثين عاما، وقدرت بحوالي ٤٠ ألف مخطوطة بينها ١٢ ألف رق جلدي قرآني.

إلا أن القاضي اسماعيل الاكوع الذي رفض أن يكون سفيراً لليمن في الخارج مفضلا أن يكون أول يمني يتولى رئاسة مصلحة الآثار ودور الكتب عام ١٩٦٩م، يؤكد بأن حجم المخطوطات اليمنية لايزال غير معروف بسبب عدم وجود حصر شامل ودقيق للمخطوطات المنتشرة في عموم اليمن ، ببيوت العلم في المدن والهجر والقرى ، حيث معظمها غير معروفة ولا مفهرسة ، البعض منها تباع لهواة شراء الكتب أو تجار المخطوطات بأثمان زهيدة.

● ويرجع الباحثون وبعض القائمين على مركز حفظ وتوثيق المخطوطات أسباب عدم وجود أرقام محدودة واحصائيات دقيقة حول حجم المخطوطات في اليمن إلى عدم اكتمال مشروع المسح والحصر الميداني للمخطوطات في محافظات الجمهورية والذي بدأ العمل به عام ١٩٩٨م.

حيث تكاد تتوزع ذاكرة الأمة من المخطوطات على جميع المدن اليمنية والمكتبات والخزائن الشخصية عددها الأستاذ القاضي/ اسماعيل بن علي الاكوع في كتابه (هجر العلم ومعاقله في اليمن) الذي كتبه على مدى عشرين عاما بأكثر من خمسمائة خزانة للمخطوطات.

، وتعتبر مدينة صنعاء أغنى المدن اليمنية بالمخطوطات ، إضافة إلى المدن التاريخية الأخرى كزبيد وشبام والغيضة والشحر وسيئون وجبلة وغيرها من المدن والمناطق اليمنية.

دار المخطوطات بالعاصمة صنعاء الذي انشئ قبل ٢٤ عاما يضم وحده نحو سبعة آلاف مجلد مخطوط يصل عدد عناوينه إلى عشرين ألف عنوان كتاب ورسالة وبحث تنصف هذه المخطوطات لأكثر من ٣٠ فنا وعلما رئيسيا ، وتشتمل على مخطوطات نادرة ومؤلفات قيمة ، كما تضم ما بين ١٠٠٠-١٥٠٠ مخطوط مصور على أفلام الميكروفيلم.

بالإضافة إلى ١٢ ألف من الرقوق القرآنية الجلدية والتي تضم ٨٠٠ مصحف يحصر تاريخها في الفترة ما بين القرنين الأول والخامس الهجري ، منها ١٠٠ مصحف مزخرف تبين المراحل المختلفة التي مرت بها عملية تدوين وكتابة المصاحف تبعا لأنواع الخطوط وأشكالها وقواعد الضبط اللغوي.

المكتبة الغربية للجامع الكبير بصنعاء لم تخل هي الأخرى من نفائس المخطوطات ، فهي تضم نحو أربعة آلاف مجلد مخطوط داخل كل مجلد مجموعة من الكتب الخطية وحوالي ١١ ألف عنوان كتاب ورسالة وبحث جميعها خطية، وتوصف هذه المخطوطات لثلاثين علما من العلوم والمعارف.

إزدواجية

● لكن تظل مسألة تعدد الجهات الإشرافية على المخطوطات تمثل مشكلة يتمنى المعنيون أن تنتهي ، خاصة مع وجود عشرات المكتبات التي تضم آلاف المخطوطات النادرة والثمينة، وتعد المكتبة الشرقية بالجامع الكبير بصنعاء أهمها، فهذه المكتبة التي تم انشاؤها عام ١٩٣٥م تتبع وزارة الأوقاف لا وزارة الثقافة المعنية الأساسية والوحيدة بالمخطوطات وبالبحث عن محتوياتها نجدها تضم حوالي (٢٤٠٩) مجلدات مخطوطة في

مخطوطاتنا بين التهام (